الفصل الثاني

نشأة طب المعالجة بتقويم العظام

إن ابتكار طريقة جديدة للعلاج في القرن التاسع عشر ليس أمراً مستغرباً في حّد ذاته إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضع الذي كان فيه الطب الأميركي في ذلك الوقت، غير أن هذه الطريقة الجديدة أثارت ردود فعل انتقادية كثيرة وسط عدد من التيارات الطبيّة.

أولاً- وضع الطب الأمريكي في نهاية القرن التاسع عشر :

كان الطب في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر في وضع يرثى له. وكانت طرائق العلاج المستخدمة وقتئذ لا تختلف كثيراً عن تلك التي كانت سائدة في القرون المنصرمة حيث كانت تعتمد على النظام الغذائي، وتطهير البطن، والحجامة، واستخدام الكمادات، ومحاولات التجبير، والأدوية الأكثر فعالية.

دافع ستل، في سيرته الذاتية، عن اتهامه بإعلان الحرب على الأطباء رغم أنه حمل بشدة على نظريّاتهم الخاطئة والاستخدام العشوائي لأدوية خطيرة و غير فعّالة، والمسارعة إلى تغيير الأدوية إذا لم تثبت فعاليتها. وفي سطور أخرى، يبين ستل الآثار الجانبية الخطيرة للكالوميل calomel على الأسنان، واستخدام الألوة (صبَار) aloés كمطهّر أو مسهّل، وكذلك استخدام المورفين morphine ، والكلورال chloral، والديجيتال digitale والخربوقين vératrine (الفيراترين) ، وخلافه.

كان تعليم الطب قبل الحرب الأهليّة يتم في معظم الأحيان من خلال عمل الشخص الراغب في تعلّمه مساعداً لطبيب يمارس مهنة الطب، ويتولى الطبيب مَهمّة شرح كُتب التشريح وعلم وظائف الأعضاء. وكان هذا النمط من التعليم مشهوراً، حيث إنّه يوفّر للطبيب «المعلِّم»، مصدر

دخل إضافياً، لا سيما أنّ أوضاع الأطباء الماديّة كانت متواضعة، كما أنّه يمكّن الطبيب المتدرِّب من أن يتلقّي تدريباً عمليّاً، وكانت مدَّة الدراسة لهذا التعليم العملي متفاوتة، تتراوح بين ثلاث إلى أربع سنوات.

في شرق البلاد، كان نظام التعليم مختلفاً عن غيره من المناطق الأخرى، حيث فتح كثير من المدارس الطبية أبوابه، بَيْد أنّ المستوى التعليميّ كان متفاوتاً بينها لدرجة كبيرة، فكثير من هذه المدارس كان خاصًّا وتؤثر الربحية على الفاعلية، وكان الحصول على شهادة الطب يستغرق في بعض المدارس عدَّة سنوات من الدراسة، وفي مدارس أخرى سنة واحدة أو بضعة أشهر من التدريب العملي، وأفدح من ذلك، كان بعض ينخرط في ممارسة الطب دون أيِّ تدريب أو تأهيل سابق، وظل الحال على ما هو عليه حتى بداية الخمسينيّات (١٨٥٠م) حيث ظهر تيّار بين ممارسي الطب يقف في وجه هذا الأمر من خلال إنشاء الجمعية الطبيّة الأميركيّة، بغية إعداد منظومة لقواعد سلوكيّة طبيّة، والعمل على تحسين مستوى الدراسات الطبيّة، ونشر أفكار الطب الوقائي. في الواقع، لم تصبح فعالية هذه الجمعية حقيقة واقعة إلا بعد مرور عشرين عاماً، وتزامن هذا الاهتمام الرامي لضبط المجال الطبي مع كثير من الاكتشافات الطبية العظيمة، مثل : البكتيريا المسبِّبة لمرض السّل (كوخ Koch)، ودور الميكروبات (باستير Pasteur) ، وفوائد التعقيم الجراحي، وفوائد الأشعة السينيّة.

ثانياً – حركات الاحتجاجات ضد الطب التقليدي :

في مثل هذا السياق العام، ليس من المستغرب ظهور حركات مناهضة للطب التقليدي وأضراره. وكانت واحدة من هذه الحركات قد نادت فيما بعد بفكرة الطب التجانسي (homéopathie) التي قَدِمت من أوربا، حيث أسسها صمويل هانيمان (Samuel Hahnemann)

دعا هانيمان لعلاج الأمراض باستخدام جرعات من مواد معروفة ومتناهية الصغر بغية إنتاج الأعراض نفسها التي يشكو منها المريض،

وظلت الحركات الأخرى بعيدة عن الطب التقليدي، وكانت الحركة التي أنشأها صمويل طومسون (Samuel Thomson) من أكثر الحركات شهرة، حيث نادى مؤسّسها بحقّ كلّ إنسان في أن يكون طبيب نفسه ومداويها. كما كانت هنالك حركة أخرى آما زال نشاطها قائماً، وهي حركة العلماء المسيحيّين. تقول مؤسِّستها، ماري بيكر إيدي (Mary Baker Eddy): إنّ الصحة الجيدة والشفاء لا يتأتّيان إلا باحترام الشرائع السماوية. لقد شكّل هذا العصر ساحة خصبة لاستغلال سذاجة الإنسان، وواحة وارفة الظلال للسحرة، والمشعوذين والدجالين.

ثالثاً – ميلاد طب المعالجة بتقويم العظام :

وفي هذا السياق العام، وتحديدًا في ٢٢ يونيو من عام ١٨٧٤م، خطرت ببال أندرو تيلور ستل رؤية ثاقبة «كشعاع الشمس المشرقة» بما ينبغي أن يكون عليه طب المعالجة بتقويم العظام، وهذا يعني أنّ نظام العلاج للجهاز المعتل يجب أن يرتكز أساساً على كيفية تهيئة جسم الإنسان فيما يتعلق بالعظام والعضلات و الأوعية الدموية والأعصاب، بشكل يمكنه من تعزيز الجهاز الدفاعي الطبيعي الذي أودعه فيه الخالق، وأورد أندرو ستل الأسباب التي دفعته لاختيار هذا الاسم، وقال: «اعتقدت أنّ العظم (osteon) هو نقطة الانطلاق التي تحدِّد أسباب المرض، ثم أضفت إليها pathos» (الألم)، فأدّى ذلك إلى مصطلح «ostéopathie» . ومن الملاحظ أنّ ستل يسترسل كثيراً في كتبه في شرح كيف خطرت في ذهنه فكرة تقويم العظام، ويسهب في الحديث عن نفسه. ولحسن الحظ أنّ لدينا عددًا من المقابلات التي أُجريت معه، وإليكم نص المقابلة التي أجرتها معه المجلة المحلية للسيدات (Ladies Home Journal) :

«إنّ المرَّة الأولى التي أدركت فيها المبادئ الأساسيّة التي أفضت إلى العلم الذي سُمي بطب المعالجة بتقويم العظام كان عمري حوالي ١٠

سنوات ». ويذكر أنّه ذات يوم، وقد تمكّن منه صداع عنيف كان يعاوده بين مدة وأخرى، خطرت في ذهنه فكرة أن يشدّ حبلاً بين شُجيرتين، وأن يستلقي على الأرض، ويضع قاعدة عنقه على الحبل كأنها «وسادة متأرجحة» وعندما فعل ذلك، شعر بالراحة وخَلَد إلى النوم في تلك الوضعيّة، وعندما استيقظ من نومه، فوجئ بأنه قد شُفي تماماً من ألمه. ويروي أندرو ستل هذه الواقعة في سيرته الذاتية، ويؤكد أنّه استخدم هذه الطريقة عدّة مرّات بعد ذلك، والأمر الثاني الذي توقّف عنده ستل متأمّلاً، هو أنه شعر بارتياح عندما وضع ذات مرّة ظهره على عود من الخشب ملقىً على الأرض في محاولة منه لتخفيف آلام الظهر التي اشتدّت علية إثْر وعكة إسهال ألمّت به، مصحوبة بحمّى وقشعريرة وآلام وتكسّر في الجسم، وأنه يعتقد أن بضعة حركات ترجيحية للظهر على العود ساعدت في تعديل بعض فقرات الظهر التي كانت قد انزاحت عن موضعها الطبيعي. فهو يعزو التحسّن الملحوظ الذي طرأ على آلام الظهر التي كان يشكو منها إلى هذا التعديل الذي تم بطريقة بدائية.أما الأمر الثالث الذي ساعد في اهتدائه إلى تطوير مفهوم تقويم العظام، فهو مرتبط باهتمامه كما يقول بميكانيكا الطواحين الهوائية التي قادته إلى للاهتمام بالتشريح. فقد تعمق ستل في مجال تقويم العظام، حيث عكف على تشريح العديد من الهياكل العظميّة للهنود. وغدا مُلمّاً كلَّ الإلمام بأجزاء الهيكل العظمي للجسم البشري كافّة، وتوسّع بعد ذلك في دراسة العضلات، والأربطة، والأنسجة، والأوعية الدموية والليمفاوية، والأعصاب. وهنالك عامل آخر كان له أثر حاسم في مسيرته الطبيّة يتمثّل في الصدمة التي عانى منها إثر المحنة التي ألمت به بفقدانه أطفاله أثناء تفشّي مرض التهاب السحايا النُّخاعي (الحُمّى الشوكيّة) على الرغم من كلّ الرعاية الطبيّة الفائقة التي حظي بها أطفاله من قبل زملائه الأطباء، فدفعته هذه الصدمة للبحث عن مفهوم جديد للمرض، وأسلوب علاجي بديل.

«بينما كنت يوماً أتأمّل في فقداني ثلاثة من أفراد أسرتي، خطرت ببالي عدَّة أسئلة جادَّة حول قضية المرض في حد ذاته: هل ترك الخالق الإنسان في عالم مليء بالتساؤلات ؟ كيف نفسّر ظاهرة المرض في ذاتها؟ ما معنى العطاء والأمل؟ ما مصير الإنسان بعد الموت؟ وعندئز حزمت أمري بأنّ الرَّب حقٌّ لا شك فيه، وأن أعماله الروحية والمادية كافة متّسقة ومتناغمة »(من السيرة الذاتية لأندرو ستل، ١٩٠٨م) وهكذا توافرت عوامل عديدة لتيلور ساعدته في مسيرته الطبيّة، منها البيئة المواتية، والإيمان الراسخ بالقدرة المطلقة للخالق، والتجربة الإنسانية والطبية المكتسبة في معترك حياة قاسية للرواد الأوائل، والشخصية الفريدة، والقدرة الفاعلة التي تفوق فعاليّة الطب آنذاك. وهذه هي باختصارالعوامل الرئيسة التي مكّنت أندرو تيلور ستل من ابتكار طب المعالجة بتقويم العظام، وتطويره.